صلة الرحم

في يوم من أيام الشتاء الباردة
كانت الأمطار تهطل بغزارة
وقطراتها تعزف سمفونية جميلة
عند ارتطامها بزجاج النافذة ، كان
الجو شاعريا جدا ونحن مجتمعين
ننتظر الوالد على طاولة الأكل؛ لقد
تأخر اليوم كثيرا، وفجأة سمعنا
صوتا يأتي من صوب الباب؛ يقول
تفضل البيت بيتك وبعدها جاء أبي
اتجاه غرفة الأكل وقال هناك
ضيف معي ، حضروا طاولة الأكل
ريثما يغتسل وأنت يا ابني هات
لعمك ملابس من الخزانة ولتكن

قطنية فملابسه مبللة ، وحين كان
الضيف يغير ملابسه قص علينا
الوالد قصته ، كانت مؤسفة جداً
حيث كان ينام في العراء بعد أن
طرده أخوه، وقال من اليوم فصاعداً سوف يبيت
عندنا
اعتبروه فرداً من العائلة واعتنوا به
أطعموه حتى في غيابي
كان العم كل صباح يخرج من المنزل ولا يعود
حتى المساء للنوم
وفي إحدى الأيام جاءت سلطات
البلدية وأخذته إلى دار العجزة
ومنذ ذلك الوقت لم نعرف عنه حتى خبر، إلى أن
جاءت الصدفة والتقيت بشخص يبحث عن وثائق
لأحد أقاربه الماكث بدار العجزة
نفسها ، فسألته عن العم ، فقال ؛

إنه هناك وقد كان يسأل عنك، كثيراً ، أظنك كنت
قريباً منه فقررت الذهاب لرؤيته ، و ما أن
رآني حتى بدت الفرحة على ملامحه وتحدثنا
كثيراً في بهو الدار ورأيت الحالة المزرية التي
كان
يعيشها وبعد أن أعلمني المدير أنه
في صحة عقلية جيدة قررت أخذه
معي بعد أن أتممت جميع الإجراءات ، لقد كان
ذلك في فصل الربيع وقد كان فرحاً جداً
كأنه خارج من السجن فحزنت يومها لأني لم أزره
إطلاقاً خاصة وأنه قال لم يأتِ أحد لزيارتي حتى
أخي. مرت الأيام وأصبح العم يذهب في الصباح
للمدينة وفي المساء يعود للنوم ولا يعود إلا ومعه
كيساً، من الفاكهة والخبز وهو يبتسم
وفي أحد الأيام مرض وانتفخت رجلاه فأخذه أخي
للطبيب وبعدها أصبحت أنا من يأخذه

وبعدالتحاليل تبين أنه يعاني من فشل كلوي جراء السنين التي قضاها في العراء، فصرت أنتقل من عيادة
لأخرى لأجري له عملية تصفية الدم إلا أن الطبيبة شرحت لي وقالت: إن كليتيه متضررتان ومن
الممكن أن يموت وبعد إلحاحي وإمضائي بعض الأوراق أدخلته مستشفى المدينة، وبعد أيام اتصل بي أخوه يقول أنه يريد أن يأخذه وبالفعل بعد يومين جاء وأخذه إلى مستشفى أكبر حيث يقطن ولم أكن حاضراً آنذاك، من جهة فرحت لصحوة ضمير أخوه، ومن جهة حزنت لأنه لم يودعني لقد أمضى عيد الأضحى هناك
وبعدها بأيام اتصل أخوه يقول أن
العم فارق الحياة طالبا وثائقه التي
تركها عندي من أجل مراسم الدفن

كنت متوجهاً للعمل ذاك الصباح ،
الممطر ، أحسست أن السماء أظلمت عليّ ولم أجد
ما أفعل وكأنني فقدت ابني أو أبي ، أخذت
السيارة وانطلقت مسرعاً، شيعت جنازته ، كان
يوماً أسود، دفنته، بيدي وعدت منهاراً إلى البيت
فاستلقيت على الأرض محاولاً إقناع نفسي أنه
حلم وبأنّ العم لم يمت ، لم أستطع النوم ذلك
اليوم، وبقيت طول الليل أجهش بالبكاء لقد أصبح
البيت فارغاً من دونه.

****